دانيل ريغ

«الياطر»: من البحر إلى الغابة، ومن الطبيعة إلى الثقافة*

(ترجمة: واكيم أستور)

الياطر** روايةٌ ألفّها كاتبٌ سوري هو حنّا مينة***، ونُشرتْ في دمشق عام ١٩٧٥. والأسلوب المكثّف والمتوتر لهذه الرواية التي تتكوّن من ٢٩٥ صفحة، وحكايتُها التي تتجذّر في أرضيةٍ قديمة، يجعلان منها واحداً من أجمل الأعمال في الأدب العربي المعاصر، ومن أكثرها نجاحاً في الأدب السوري في كل الأحوال. وهي ليست روايةً من أدب الرحلات بالمعنى الدقيق، ولا يشكّل كونُ بطلها صيّاداً حجةً كافيةً، من حيث المبدأ، لتوجيهِ اختياري، لأنّ حياته تجري على شاطئ البحر لا في البحر، ولأنّ الأحداثَ التي عليه أن يعيشها لا تُبعده كثيراً عن المرفإ حيث يقيم. بل إنّ معنى العنوان نفسه (**الياطر**) كان يمكن أن يصرفني عن اتخاذه نموذجاً لهذا النوع من الأدب [أي أدب الرحلات]، لولا أنني أردتُ أن أجد فيه «مجازاً» وبالتالي انزياحاً في المعنى. فإذا اعتبرنا أنّ الرحلة انتقالٌ يمكن تحديدُه على أساسِ معطياتٍ يمكن أن تكون جغرافيةً فترتسم عندئذ داخل فضاءٍ محسوس، أو قد تكون سيكولوجيةً فتتعلق في هذه الحال بالمخيال، لاستطعنا القول، دون التلاعب كثيراً بالمفارقات، إنّ كل حركة مرسومةٍ في إطار هذه المعطيات (مهما كانت هذه الحركة ضئيلةً)، إنّما هي انتقال، ويمكن بالتالي أن تُماثَلَ بالرحلة... حتى لو كانت رحلةَ تلقينٍ طقوسيةً.

وبالفعل، فإنّ زكريا، البطل الصياد، مضطر إلى الهروب من مدينته، لأنه ارتكب فيها جريمةً للتو. ولذلك يسير بمحاذاة الشاطئ نحو الشمال. وعندما تخور قواه يتوقف، ويجد نفسه على الشاطئ الرمليّ لجونٍ صغيرٍ ترصّعه بضعُ صخيْرات

---

* ـ كتب هذه المقالةَ الباحثُ الفرنسي دانيل ريغ، مؤلف قاموس **السنبل**، وهو قاموس عربي ـ فرنسي صدر عن دار لاروس. ونُشرتْ هذه المقالة في عدد خاص من مجلة **الأدب المقارن**، الصادرة في باريس، والعدد مكرّسٌ لأدب الرحلات. (المترجم)

** ـ حنا مينة: **الياطر** (بيروت: دار الآداب، ط ٥، ١٩٩٧). وقد صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٧٥.

*** ـ ولد حنا مينة عام ١٩٢٤ في اللاذقية (سورية) في عائلةٍ مسيحية. كان والده بائعاً متجولاً يتنقل في منطقة الإسكندرونة حيث تقيم العائلة. واكتشف البحر والبحّارة من خلال أقاصيص جده، وكان بحّاراً هو نفسه، ثم التحق بالمدرسة حتى شهادة الدراسة الابتدائية التي حصل عليها بالفرنسية، ثم أصبح صانعَ حدّاد، ثم حلاّقاً، ومارس عدة مهن أخرى. ناضل في صفوف أقصى اليسار، ودخل السجن، ونشر مقالات عنيفة، وأصبح يُعرف أكثر فأكثر برواياته الثورية التي سكب فيها تجربته النضالية الشاقة. لكنه احتفظ في داخله بحبٍ عميقٍ للبحر الذي كرّس له سلسلةً من الروايات، من بينها: **الياطر**.

«الباطر» واحد من أجمل الأعمال في الأدب العربي المعاصر، ومن أكثرها نجاحاً في الأدب السوري

تلامسها منطقةُ أدغالٍ كثيفة، هاربة من الغابة المجاورة. على هذا الشاطئ، الذي نادراً ما يرتاده الصيادون، ولا يؤمّه المستحمّون مطلقاً بالنظر إلى الزمن الخرافي الذي تدور فيه أحداثُ هذه القصة، يعتقد زكريا أنه وجد مكاناً مناسباً للاختباء. وهذا المكان يقع على نقطةِ التقاء البحر ـ الذي تغيب فيه الشمسُ بعيداً في ألوانٍ متفجرة ـ بالغابة التي تفرض تموجاتِها العميقةَ على رونقٍ من التضاريس الوعرة. إننا الآن في مدى الرؤية لمرفإ الإسكندرونة. وهذا في ما يختصّ بالمعطيات الجغرافية والانتقال في الفضاء.

يتكلم زكريا العربيةَ والتركيةَ. وهو يروي لنا هذه القصة بنفسه، مازجاً ـ في رواية الأحداث التي عاشها حتى الآن، والأفكارِ التي راودته ـ العديدَ من المعترضات التي نكتشف بفضلها، شيئاً فشيئاً، أيّ شخصٍ هو، وكيف وصل إلى هذه الحال، وماذا يعتمل في داخله. والواقع أننا نعلم من سرده المتشابك أنه، في زمن القصة التي يرويها لنا، قد أصبح رجلاً كهلاً، وأنه فقدَ في الماضي إحدى ذراعيه بإصبع من الديناميت لكنه يحتفظ الآن بكل قوته ونشاطه. ونعلم أيضاً أنّ له ولداً شقياً لا يؤمل منه شيء، ارتكب منذ فترة وجيزة جريمةَ قتلِ أحدِ الصيادين.

يبدو جلياً أنّ الذي أطلق هذه الروايةَ من عقالها هو، بالضبط، ذلك القدرُ الحتمي الذي دفع الابنَ إلى القتل، كما كان قد دفعه هو [أي زكريا] في الماضي إلى ارتكابِ فعلٍ مماثلٍ تماماً، في اليوم الذي حملتْ فيه زوجتُهُ بابنه ذاك. إنه رجلُ بحرٍ، بحرٍ قريبٍ يجد فيه زكريا لقمةَ العيش معلّقةً في رأس قصبة الصياد. إنه عالمه، إذا وضعنا جانباً حانةَ «ابن اليونانية» حيث تكون كأسُ العرق جاهزةً له دوماً، وسريرُ هذه الغانية أو تلك مفروشاً يجد فيه راحةَ الصياد قبل أن يذهب إلى لقاء زوجته. وهو يقضي أمام البحر ساعاتٍ طويلة، متقوقعاً على نفسه «كقنفذٍ خجول»، يتأمل أدنى ارتعاشات سطحه، ويُصغي إلى أصغر لطمات أمواجه. وهو يحاول أن يبثَّ هذا البحرَ كلَّ عذاباتِ روحهِ المغلقة على الآخرين، كما على نفسه. فالبحر هو الوحيد الذي يستطيع تهدئةَ العنف الذي يغلي في داخله، فيستمدّ منه العزاء، ويغتسل فيه من آثامه.

والحال أنّ أعزّ أمنيةٍ لدى زكريا هي أن يتحول إلى سمكة، أن يكون سمكة... وهو يتعاطف كثيراً «مع كلب البحر» الذي يُقال إنه يشبهه، ومثله يستطيع أن يقطع مسافاتٍ كبيرةً تحت الماء، ويسبح كالدلفين الذي كثيراً ما يقارن نفسَه به، إلا إذا أُجبر على عدم الحراك؛ وعندها يصبح «قنديلَ بحرٍ» يقعد مكانه ساعاتٍ طويلة ملوِّحاً بأذرعه وسيقانه. إنّ زكريا رجل في البر، لكنه لا يشبه أحداً. شعره كثيف ملبَّد بالملح وحراشفِ الأسماك، قدماه عاريتان دائماً لأن لا حذاء يطابقهما، يذرع أحياء المرفأ أشعثَ دون هندام، يخرج من المعركة بسمكة أو بامرأة، ويتحدث عن أيٍّ منهما كما يتحدث إليهما، مستخدماً العباراتِ نفسَها، ومبدياً لهما المشاعر نفسها (على الإنسان أن يعيش...)، هذا إذا لم ينبق من شجارٍ تغلّب فيه ـ بقوته البدنية الهائلة (فهو جاموسٌ بريّ) ـ على عدة خصوم يعادلونه في الثمالة.

إنّ زكريا لَيُبرهن، في الواقع، وفي كل المناسبات، على كبرياء متفاقمةٍ، ويثور قاسياً عنيفاً: «ليس عنده قلب ولا دماغ». طبيعته بدائية، حيوانية، متوحشة (فهو سبع)، وإنه ليندفع (فهو ثور)، لأنه ساذج ذو طبع محدود القدرة على التفكير المعقول (فهو حمار). ولا يكون سعيداً إلا عندما يجد في جيبه ثمنَ سَكْرةٍ؛ فهو يحبّ كؤوسَ العرق الطافحةَ التي يعبّها بإسراف.

ولأنّ له هذه الطبيعة المتكبّرة المتهوّرة، ويحبّ الكحولَ كثيراً، فقد ذهب، غداةَ انتصاره، يفتح بضربةِ سكينٍ هائجةٍ بطنَ صديقه، الخمّار «ابنِ اليونانية»، «ابنِ العاهرة» ذاك، متوقّعاً أن تسيل منه سَواقٍ من الألماس، وموجاتٌ من القطع الذهبية. لقد خدعه الصيادون الآخرون وأثاروه، حسداً من انتصاره على حوتٍ تائهٍ دَخَلَ المرفأ، فأحدث فيه أضراراً بضخامة جثته، وحرَّضوه بالقول إنّ الحيتان ـ هذه الرحّلَ الكبيرة ـ تحمل في داخلها كنوزاً لكثرة ما تتاح لها فرصُ ابتلاع المراكب الغارقة ومَنْ عليها مِنَ الأثرياء؛ وقالوا له إنّ هذه الحيتان لا تستطيع هَضْمَ الأحجار الثمينة والذهب، فهي تحفظها في كيس خصوصي في أحشائها؛ وإنّ هذه الأحشاء هي عينها التي باعها زكريّا البارحةَ إلى «الخمّار» بزجاجتين من العرق، بعد أن تمكّن من ربط هذا الغول وسحبه إلى الشاطئ، مقامراً بحياته لقاءَ بضع ليرات، لحساب شركة فرنسية ـ لبنانية راغبةٍ في سحبه إلى معامل التقطيع. لكنْ كان يجب إفراغُ الحيوان من أحشائه، وعُرضتْ على زكريا بضعةُ نقود إضافية، فقام إلى العمل فوراً. وببضع ضربات من بلطته، أحدث فتحةً في خاصرة الحوت. «وكيونان جديدٍ»[1]، إنما خشنٍ وحقودٍ (فقد سبق أن ابتلع

١ ـ يونان هو الشخصية التوراتية التي ابتلعها الحوتُ ثم أعادها حيةً. (المترجم)

العديد من الكؤوس)، فَتَحَ زكريّا لنفسه، وبعنفٍ، طريقاً عبر العظام المكسّرة، في دم الوحش ولحمِهِ وأحشائه. ولدى وصوله إلى الداخل، أتمَّ المهمة التي كَلَّفَ نفسَه بها، خلافاً ليونان الذي لم يكن «مبلوعاً» مطيعاً. وبدل أن يكون الحوتُ هو الذي يفرغ نفسه من زكريا، كان زكريا هو الذي قام بإفراغ الحوت من نفسه. كما أنّ عودته إلى الضوء تدشّن، على ما يبدو، فترةَ ظلامٍ بالنسبة إليه، وهو ما يختلف عن حالِ يونان ذاك، الذي كان خروجُه من بطن الحوت إيذاناً بالبعث أيْ «بولادة جديدة». كان لا يزال مدمّى ودبقاً من نزوله إلى الكهف السمكي، ومشرّباً إلى أعماقه بهذه الطبيعة الظليلة التي اكتشفها فيه، وربما ملعوناً لتدنيسه المقدساتِ، إذ إنّه مسيحي حتى وإن نسي أنّ السمكة هي رمزٌ ليسوع، عندما دخل زكريا ـ بقتله للحوت الذي يشبه قتله لأبيه ـ في نوع من «الموت الطقسي». وتصبح قوته الحيوية، التي استثارتها المعركةُ الجبّارة التي خاضها، مصدرَ فوضى وتعاسة. وفي ضياع كامل فاقمَتْهُ كميةُ الكحول، التي لم يتوقف عن ابتلاعها منذ ثمان وأربعين ساعة، يأتي في الغداة ليطالب «بكنزه»: كيسِ الذهب والأحجار الثمينة التي كان يحملها الحوتُ في جوفه، والتي وجدتْ طريقها، على ما يبدو، إلى الجوف الكبير للخمّار الحقير...

سوى أنّ المجاز هو أداة الشاعر، وليس شيئاً من العالم المادي الذي لا يجيد زكريا مراقبته. ومن جهة أخرى، فإنّ صديقه الحكيم عبعوب الصياد، الغنيّ بكل تجارب الحياة، لا يني يذكّره بهذا الغباء، وينعته بالحمار. إذاً، كل شيء هنا ينبغي أن يعود إلى مكانه. فانتصاره على الحوت ليس انتصاراً للبطل الذي يكافئه المجتمع، على نحو ما أوهمه بذلك تشجيعُ السلطات، وهتافاتُ الجمهور، ومديحُ الصحفيين (حتى إنّ صورته بطلاً ظهرتْ هذا الصباح على الصفحة الأولى في الصحافة المحلية). كما أنه ليس انتصاراً في حياته الخاصة، بالرغم من أنه نجح، في ضمّةٍ عنيفةٍ كالتي وحّدتْه مع الحوت، في أن يُخصِب امرأتَه التي انتظر منها عشرَ سنوات أن تلد له ابناً. فقتْلُ الحوتِ ليس إيذاناً بسلسلةٍ من أعمالِ سوء الفهم، لأنّ القاتل تابَعَ عملَه بوضع البذرة ـ التي سوف تخلد في الابن المنتظر، الإنسان السيء الذي كانَه ـ في جسد امرأته، وبإفراغ جسد اليوناني من الحياة التي كانت راقدةً فيه، وهي كنز أيضاً، لكنه لم يكن ذلك الكنز الذي اعتقد أنه سيجده فيه.

وفقاً لهذا المضمون، لم يكن لهروب زكريا، بدايةً، إلا وظيفةُ تمكينه من الإفلات من العقاب الذي يجب أن يجرّه عليه فعلُه الشريرُ، ومنحه الفرصةَ لنسيان العمل الذي اقترفه. لكنّ هذا لم يكن يأخذ في الاعتبار ألاعيبَ ضميره البارعة. فعندما غادر فضاءه العائليّ، كان المعتدي الذي

يتحوّل رجل الغابة إلى عاشق رقيق يبسط فوق النجوم خطوطَ كوخٍ سيبنيه

أصبحَه مترافقاً مع داخله المزدوج الذي لم يكتفِ بملاحظة الأشياء والكائنات، بل أخذ يلاحظ نفسه أيضاً بدقة. ويصبح زكريا عندئذ الحقلَ المغلقَ للصراعات بين المعتدي والبطل، وهي صراعات سوف تدفع إلى سطح وجدانه رواسبَ دفينةً منذ زمن طويل. وشيئاً فشيئاً، في بلبلة ذهنه أولاً، ثم بثباتٍ أكثر فأكثر، وبصفاءٍ واضح، سوف يتعلم أن يغربل البقايا في أناه الشخصية، وأن يكتشف كينونته العميقة التي أخفاها مظهرٌ اجتماعيٌّ مندفعٌ وعنيفٌ.. ها هو، إذاً، لاجئٌ إلى التواءٍ صخريٍ غطّاه ببعض الأغصان المستعارة من الغابة المجاورة، ومضطرٌ إلى العيش مع الخوف من الدرك وكلابهم، وعلى السمك فقط لأنه، لحسن الحظ، يملك في جيبه بضعةَ عيدان كبريت، وصنارةً وحيدةً مربوطة إلى خيط. إنه على يقين، إذاً، بأنه لن يموت جوعاً، في مرحلة أولى على الأقل: فهو يمتلك فنَّ الصيد، والبحرُ هو مملكته.

ولكنه مع ذلك، ولكونه هارباً، يتجه بشكل طبيعي إلى الغابة، حيث يمكن أن يجد ملاذاً أخيراً، لأنه يعلم أنه يستطيع أن يعيش فيها متخفياً. غير أنّه يكتشف هنا عالماً أخضر مزرقّاً وسرياً، واحداً ومتعدداً في آن، والصمت فيه مثلُ حجرٍ يجثم على قلبه، والقلقُ يعتصر روحه، لا شيء سهلاً فيه، وكل شيء يعانده: رؤوسُ الأشجار هذه التي لا يعرف لها اسماً ويصطدم بجذورها، وهذه الأوراق الميتة وإبرُ الصنوبر التي تتكسر تحت قدميه، والفِطرُ الذي يعرف أنّ بعضه سامّ، وهذه الأعشابُ العالية التي تحجب عنه الأحجارَ والشوكَ، والأفاعي الراعبة التي يشعر أنها تنساب أمامه. كلُّ ما يوجد هنا غريب في عينيه. أقلُّ حركةٍ تجعله ينتفض: سنجاب يقفز ويخفي وجهه وراء غصن ليراقبه من علٍ، وأرنبٌ يفرّ بين الأدغال... يقشعرّ بدنه عندما يسمع طيراً يطير، أو ثعلباً يعوي، أو غراباً ينعق، أو كلباً ينبح في البعيد وقد يكون ذئباً... وتتشنج يدُه على العصا التي تسلّح بها. حتى الروائح كانت جديدةً بالنسبة إليه، سواء أكانت رائحة الرطوبة، أم رائحةَ الطراوة، أم رائحةَ الأرض أو الغابة. والنور الذي تَحْجب وهجَه أوراقُ الغابة الكثيفة، بحيث لا تُرى سوى بقعٍ مشمسةٍ في بعض الأمكنة، يعطي الغابةَ هيئةَ قبوٍ رصاصيٍ أو بئرٍ تتكوم فيها الطحالب.

ويستمر هبوطُ زكريا إلى الجحيم، لأنه يتذكر، وبشكل متقطع، القصصَ التي كان ينوي روايتها في الماضي لأبيه، عن الكائنات العجيبة التي تسكن الغابات، وتقفز من شجرة إلى شجرة، كاسرةً أحياناً جذوعَها في توهجاتٍ تُعمي البصر، وعن هذه الغيلان الدموية التي تعيش في الكهوف العميقة وتفترش جوانبَ الينابيع لتلتهم التعساء الذين يرتادونها للشرب، وعن الجنيّات الشريرات اللواتي يرمينك بسحرهنّ ويحوِّلْنَكَ إلى ضفادع، أو عن حيوان مخيف يُنشب فيك مخالبَه الشامة.. «إن الأشجار كالفكوك التي تقضم.. انظرْ إلى الغابة وهي تأكل» (انظر هوغو: **أسطورة العصور**).

ومن جهة أخرى، سيكتشف زكريا، القادم بقطيعةٍ إلى العالم، سيكتشف هنا، شيئاً فشيئاً، أنه في قطيعة مع نفسه هنا. وعندما يغوص في هذه الأفضية المظلمة، العمائية، الملتوية، فإنّه يغوص بصعوبةٍ في روحه، ولهذا يُرْعَبُ بما يكتشفه فيها. وعليه، «كبطل» قصة عجيبة، أن يخترق الغابة، التي لم توجد ههنا إلاّ لتسمح له بالذهاب بعيداً، وبالتغلب على التجارب، ورؤيةِ الأمور بوضوح، فيصبح آخرَ، ويكتسب قوى جديدة. والحق أنّه قلّما تغيب القصصُ العجيبة من هنا. وهذه القوى، التي يستمدها البطلُ الأسطوري من عالم الغابة، لا تتعلق بطبيعةٍ شوّهتها حياةُ الإنسان، وهو (أي زكريا) كان قد أصبح «قوّةً من الطبيعة»، وإنّما تتعلّق بهذه الأم الميثولوجية التي تمسك في ذاتها أسرارَ القمر والشمس والنجوم (كما في قصة يوحنا الدب) ومفاتيحَ الزمن والفصول والإيقاعات الكونية، والسلامَ الداخليَّ الذي يحس صيادُنا الخاطئُ بشكلٍ مشوَّش أنه في حاجةٍ ماسة إليه.

ومع ذلك، يتابع زكريا طريقَهُ بذهنٍ متوقد: عيناه متحفِّزتان، وأعصابُه مستنفَرَةٌ، وعضلاتُه مشدودة. لم يعد يعرف أين هو. وكمثل «پوسيه صغير» تائهٍ[1]، فإنّه محكوم بأن يذهب دائماً أبعد، لأنّ الغابة لا يمكن أن تكون له إلا مكاناً للعبور. ثمة جنيّة طيبة فقط تستطيع أن تساعده على إيجاد الطريق القويم... لكنه لا يلبث أن يكتشف لساناً صخرياً، فيستعيد حينئذٍ فضاءَ السماء الأزرق الواسع، وألقَ الشمس وحرارتها، ويستطيع أخيراً أن يحدد مكانه بالنسبة إلى البحر. تفرش الغابة فوقه بساطَها السميكَ الأخضر، في تدرجاتٍ تهبط حتى الجون الصغير الذي أقام على شاطئه ملجأه الهشّ. في البعيد منارة، وثمة أبعد قليلاً شواطئُ مدينةٍ... هي مدينته.

هنا يشعر فجأةً بأبعاد وضعه: فهو مقطوع عن العالم، معزولٌ في هذا الكون الذي لا يبدو له غريباً فحسب، بل معادياً ومقفراً أيضاً، حيث يجب أن يَحْذر كلُّ شيء، خصوصاً أولئك الناسَ الذين قد يكونون مستعدين للإبلاغ عن وجوده. خَلاصُهُ، إذاً، هو في الابتعاد عن كل حياةٍ بشرية. ومثل «روبنسون[2]» آخَر، سيتعيّن عليه أن يعيش وحيداً، ووحيداً مع نفسه. وهو يشعر جيداً، ويعلم أفضل فأفضل، أنّ عدوه الأكثرَ شراسةً إنّما هو هنا: قابعٌ في أعماق ذاته، مستعدٌّ دوماً للهجوم والضرب... والعضِّ إذا تطلب الموقف.

تمرّ الأيام، ولا شيء يزعجه خلال هذه الأحاديث الطويلة مع نفسه. وفي أحد الأيام، وغيرَ بعيدٍ عنه، في الغابة التي تعلّم أن يعرفها، ويروّضها، والتي أصبحتْ صديقةً له تقريباً يجد فيها بعضَ السلام والسكينة، يكتشف ساقيةً صغيرةً من الماء الرقراق الهادئ الصافي، يغذّيها ينبوعٌ صغير. وحين ينحني ليشرب منها، يطالعه وحشٌ في الوجه الذي يقترب منه. هذا الرأس المشعّث المحروقُ بالشمس وملحِ البحر، وهاتانِ العينان البرّاقتان المغروزتان في الحَجاج، وهذا الشعر الكثيف الذي يغطّي جمجمتَه ويحجب خدَّيْه وذقنه، وهذه الأسمال التي تكاد لا تغطي جسده، لا يمكن أن تكون لأحدٍ إلاّه. لم يكن قد رأى ذئباً في الغابة حتى الآن، أو غولاً، أو وحشاً آخر، ذلك لأنه إنْ كان ثمة من ذئبٍ أو غول، فإنّ الوحش موجودٌ فيه؛ إنه هو الوحش. وهو إذّاك يشبه حقاً ما يعرف ـ كلُّ يوم وبوضوح أكثر ـ ما هو عليه في الواقع: حيواناً شرساً، وإنساناً متوحِّشاً. لقد أضاع منذ وقتٍ طويل عدَّ الأيام، ولم يعد يميِّز إلا نورَ الشمس من ظلمات الليل. وإذ حُرِمَ الكحولَ والتبغَ والنساء، فقد انتهى به الأمرُ إلى أكل السمك النيء، لأنه استنفد احتياطيَّه من عيدان الكبريت، وأحس أنه وصل إلى قاع الإملاق. وفهم كيف تكون حياةُ القديسين النسّاك، في وحدتهم القاسية البائسة.

صعد مرةً نحو الشمال، وشاهد ما خُيِّل إليه أنه قطيعُ بقرٍ على تخوم «غابته». لم يسبق أن لاحظه من قبلُ، لأنه لم يكن قد غامر بعدُ بالدوران حولها من هذه الناحية. لكنّ الحاجة الماسّة، إلى عيدان الكبريت في الأقل، دفعته إلى الخروج من جحره، جاهزاً لارتكاب خُلسةٍ ما. ثمة راعية يساعدها كلبُها، تحرس بقراتها التي ترعى في حقول بائرة. يرتسم فوراً مخططٌ في ذهنه: سوف يصطاد بضعَ سمكاتٍ طيبات، ويذهب لعرضها عليها لقاءَ بعضِ التبغ، والخبزِ الذي أضاع زكريا مذاقَهُ، وعلبةِ كبريت. وفي أولى ساعات الغداة

---

١ ـ پوسيه الصغير بطلُ قصةٍ للأطفال في فرنسا يتيه في الغابة (يقابلها في العربية شخصيةُ «عقلة الإصبع»). (المترجم)

٢ ـ روبنسون كروزو بطل رواية شهيرة تتحدث عن حياته على جزيرةٍ مقفرة بين أكلة لحوم البشر.(المترجم)

(وكان قد نام ورأسه في النجوم واستيقظ مع تباشير الشمس لأنّ وجاره ليس كبيراً بما يكفي)، ألقى بخيطه مبتهلاً إلى صديقاته، آلهةِ البحر، أن تكون طيبةً معه. وخلال النهار، بعد أن «شكّ» صيدَه على ألياف من القصب المجدول، اقترب ببطءٍ من الراعية، مراقباً كلَّ المنافذ. وبحذر بدأ الحديث معها. فإذا هي امرأة شابة تركية، سافر زوجُها للعمل في الأناضول منذ سنوات خلت، وهي تحرس بقرات القرية التي تقع خلف التلال. ولكنها لا تستطيع شراءَ سمكاته، ويفهم أنها فقيرة مثله، ولا تستطيع بيعها لحسابه في القرية لكي لا تلفت الأنظار. «شكيبة» الراعية تبدو، على كل حال، أنها تعرف عنه أشياء كثيرة، لكنها تَعِدُه بجلب ما يطلبه في الغد. انتظرها بقلق خفيف، ولكن بفارغ صبرٍ. وعندما التقاها ثانيةً، كانت تحمل إليه كنوزاً: بضعَ قطع من الخبز القاسي، عدة سيكارات، قليلاً من الملح، علبَ كبريت، غليوناً كان لزوجها، وفتاتاً قديماً من التبغ. يكتشف بريق سعادة مفاجئاً في هذه العطاءات الفقيرة، فيقترح عليها، لكي يشكرها، شيَّ السمكات التي اصطادها ذاك الصباحَ. أشعل ناراً في الغابة، بعيداً عن الأنظار، وقام باستعدادات الطعام وهو يثرثر معها. إنه يدرك أنها لا تصدِّق كثيراً الحكايةَ التي رواها لها: حكايةَ صيادٍ جاء يبحث هنا عن مناطق جديدة للصيد...

ومضى زمن وهي تراقبه دون أن يشعر، لأنها تعرف كلَّ عشبة صغيرة في الحقول المجاورة، وكلَّ جذعِ شجرةٍ في هذه الغابة، حيث تتنقّل كأنثى ريح خرافية. وقد أيقظ حضورُ هذه المرأة إلى جانبه ـ الجميلةِ بالرغم من بهارجها الصفراء المزيفة، والمتوقدةِ الحزينة قليلاً ـ أحاسيسَه النائمة شيئاً فشيئاً. وحرّكتْ حرارةُ هذه الوجبة «الولائمية»، وهي الأولى منذ زمن طويل، وعبّاتُ السيكارة العميقة، رغائبَ منسيةً فيه، فأقنعها بالتوغل معه أبعدَ قليلاً بين الأدغال. هنا يدوّي انفجارٌ من السعادة. ويتحول رجلُ الغابة الذي كانَه إلى حينٍ، عاشقاً رقيقاً، ممتلئاً بالاهتمام بأميرةٍ حييةٍ غافيةٍ منذ أعوام طويلة... وهو، الحيوانَ المتوحشَ الذي لم يتصور يوماً أنه يستطيع أن يحلم بكوخٍ وقلب، يرقد في المساء وهو يبسط فوق النجوم خطوطَ كوخٍ سيبنيه، حطبةً بعد حطبة، في هذه الغابة التي أصبحتْ ملكهً منذ الآن. سيكون ثمة بستانٌ أيضاً ينتزعه من الأدغال، ويزرع فيه خضاراً وزهوراً؛ وستكون «شكيبة» هنا، إلى جانبه؛ وستكون هذه هي الجنة: وسيكون ثمة رجل وامرأة، هما الأوّلان فيها.

لكن شكيبة لم تعد في الغد، ولا في اليوم الذي بعده، ولا في الأيام التالية، فاضطر زكريا كلَّ مساء أن يعيد إلى البحر صيدَ الصباح. وتعود إليه شياطينُه: انتفاضاتُ الغضب، العنفُ الأعمى، الوحوشُ التي تسكن ثنايا لاوعيه، وخوفُه كمنبوذ، لأنه يخشى أن تكون شكيبة قد وَشَتْ به إلى الدرك. مرة أخرى، استهلك احتياطياته وتلاشى. ودخل معركةً قاسيةً مع الأشباح الشريرة التي تسكن عقله، وتُطِلّ برؤوسها المخيفة كلَّ لحظة. وفي إحدى الليالي، عندما كان يتسكع قرب الماء، غيرَ بعيدٍ عن كوخه، سمع عواءً مخيفاً، وأيقن أنهم الدرك الذين أنذرتهم شكيبة، فقفز إلى الماء. ولكي يسبح بسرعة، تخلّص من بعض الأسمال التي كانت لا تزال تغطي جسده، وابتعد في البحر بتذريعات كبيرة. وعندما بلغ منه التعب، أخذ يستلقي على وجه الماء، أو بقي مكانه محرِّكاً قليلاً ذراعيْهِ وساقيه. لكنّ البرد يمسك به، فيعود إلى الشاطئ ببطء، مراقباً بدقةٍ، وسط تلاطم الأمواج، كلَّ حركةٍ تنمّ عن حضورٍ ما. لا شيء. لا أحد. يخرج زكريا من الماء، ويدرك أنه عارٍ في الليل. سيعيش هكذا بعد الآن: رجلاً خارجاً للتو منَ الماء، متوحشاً وعارياً، ولم يبق لروحه إلا أن تتعرّى هي أيضاً.

يلتجئ زكريا إلى الغابة. وفي أحد الأيام وقد انتابته الحمّى، وغفا في أحد الأدغال ـ وهو الدغل ذاته الذي حضن لقاءاته مع الراعية ـ يشعر بأنفاس حارةٍ تلعق وجهه. استيقظ مرعوباً، ورأى شِدقاً بشعاً لحيوانٍ يتأهب للقفز عليه. قفز وأمسك بعنق الوحش، وحاول خنقه بيديه. ودار صراع حتى الموت: الحيوان يمزِّق جسده بمخالبه، ويبصق في وجهه لعابَهُ المدمّى، ويحاول عضّه بأنيابه التي تلمع على مسافة إصبع من عينيه. لكنّ خوفاً قاسياً ورغبةً شديدة في القتل أمسكا بزكريا كما لم يحدث معه من قبلُ: راح يقاوم الهجوم، ويعارك، ويعضّ، ويخدش، ولا يفلت الحيوان من يديه. وببطء جعل يزيد من ضغطه، ويُغمد أصابعه المخلبية في شعر الحيوان، شادّاً كلَّ عضلاته. وأخيراً، تلاشى الحيوان وتهاوى جسده. لقد ربح زكريا المعركة. رجل الغابات، المنتصرُ في صراع انفرادي على أحد سكان هذه الأنحاء، يحتله، هو بدوره، سحرُ الغابات: لقد أصبح «ذئباً مجروحاً». وفي الوقت نفسه، تغلّب على الوحش، على الأنا الأخرى، أنا الأغوارِ التي كانت تسكنه. لكنّ تشظّيه إلى إنسان جديد يجب أنَ يكتمل... ومن أجل هذا، عليه أن يتوغل أبعد أيضاً في نفيه للذات.

أقعى من الإنهاك ساعاتٍ طويلة قرب جثة عدوه. وعندما استفاق، كان يحترق من الحمّى. كتفه وفخذه وصدره منتفخةٌ من الصديد، خائرُ القوى، ملتهب الحلق. زحف على الأرض، واتجه إلى المكان الذي أمل أن يجد فيه ينبوعَه الصغير، لكنْ دون جدوى. افترسه الغمُّ، فجرَّ نفسه نحو البحر الذي كان دائماً ملجأه الأخير. سوف يغتسل فيه ويتطهر، ويجد من جديد ذلك الاندفاعَ الحيويَّ الذي بدا أنه قد تخلى عنه. لكنه لم يتمكن إلا من ترطيب نفسه قليلاً، وعاد

إلى وكره الصخري حيث نام نوماً مسكوناً بالكوابيس، تقطعه لحظاتٌ من الهذيان. لم تهدأ الحمى، والالتهابُ يزداد. وفي لحظةِ وعيٍ مستعادٍ في أحد الصباحات، يحاول أن يثقب جراحه المتقيّحة بقطعٍ من القصب مزّقها بأسنانه ليستعملها مبضعاً، فتدفق الصديد. وأخذ يضغط بجنون على جراحه كي يفرغها. أخيراً، ستفعل مياهُ البحر فعلَها الشافي. وتعود إليه ثقتُه قليلاً، وينجح، بعد ألفِ معاناة، في أن يجد نبعَ الماء الذي بحث عنه عدة أيام يائساً. وعادت شهيته قليلاً قليلاً، لكنه لا يجد القوة ولا الصبرَ على الصيد. وهو يعرف أنّ ثمة محارات من «الباطلينز» في أسفل الصخور، سيحاول انتزاعها بأظافره التي أصبحتْ مخالبَ حقيقيةً. ولكنْ دَميتْ يداه، واضطرّ سريعاً إلى التخلي عن حصاده. وعندها تملكه غضبٌ عارم، فغطس وأخذ يقتلع «الصدف» بهمجية، ويمزّقها بأسنانه كوحشٍ آتٍ من الأعماق السحيقة. هدأ جوعه؛ واستطاع أخيراً أن ينام ويستريح.

عندما استيقظ بعد ذلك بمدة طويلة، اكتشف صرةً من الثياب تحوي بعضَ الخبز، والكبريت، وبضع سيكارات.. إنها عطية «شكيبة» الأخيرة، جنّيته الطيبة. إذّاك، نسي تلك الفترة الطويلة التي كان خلالها مثل «أيوب على مزبلته»، فريسةَ الألمِ والمرضِ والشقاء، وبدأتْ نقاهته البدنية والنفسية: صار قلبه مفعماً بحبٍ خجولٍ ورقيق، وجسمُهُ متأهباً لاستعادة حيويته السابقة. عندما هدأتْ روحه بعد ذلك، وجد ثانيةً آثارَ المرأة الشابة التي تقود قطيعَها في أماكن أخرى. وتصالحا بعد إزالة سوء الفهم، والتقيا ثانيةً في المساء، في ملجإه الذي وسّعه وحوّله إلى كوخ من القصب. ويتكرس اتحادُهما عندما تدخل شكيبةُ الماءَ الذي يتلألأ تحت أشعة البدر، وتقدّمَ جسدُها العاري ليلامس الأمواج، وتبدو، «كأفروديت»، مولودةً من زبد البحر. وزكريا، الذي كان قد وعدها ألاّ ينظر إليها مطلقاً، وأن يبقى عاقلاً في كوخه، لا يستطيع المقاومة أمام هذا المشهد الذي يرى فيه، لأول مرة في حياته، المرأةَ التي يحبّ وقد أصبحتْ سمكةً رائعةً. فيسحبها من الماء، ويمدد جسدها المتموج على الرمال الرطبة.

ها هي ذي، إذاً، رواية سورية يمكن أن نقرأ، قراءةً عجلى ومسطّحَةً، أحداثَها التي وسمتْ حياةَ صيادٍ فقير، غنيةً بالألوان على وجه اليقين، ولكنْ غيرَ ذات معنى. وقد حاولتُ من جهتي أن أتلمس هنا بعضَ العناصر التي يمكن أن تشكل خطاً من الذّرى المتواصلة، لأجعل لها، في هذا الفضاء المحدود، قراءةً «نصف مشغولة»، تمهّد لاكتشاف وجوهٍ «للسلوك النماذجي»، أنتجها، في منطقةٍ خصبةٍ بالميثولوجيا، مخيالٌ جماعيٌّ لا يزال يعمل منذ آلاف السنين.

ولهذا، كيف يمكن ألا نرى في زكريا ذلك البطلَ الميثولوجيَّ الغنيَّ بالمتناقضات، المولودَ تحت دلالة العنف والكبرياء العارمة، ونوعاً من إلهٍ قمريٍ ينجح ـ بالرغم من ذلك، وبفضل تطور وجدانه، ولكنْ بثمن هو أقسى العذابات ـ في السيطرة على مختلف النزوات التي تحركه، دون أن يلغيها، وينتهي مؤقتاً إلى السيطرة على نفسه بحماس، لكي يحيا أخيراً اتحاد الأهواء والعقل، ويصبح نوعاً من إله شمسي: هو أبولون؟!

باريس

قريبا عن دار الآداب

روايات بهاء طاهر